

سُورَةُ الْكَوْثِرِ

حِينَ يَكُونُ الْعَطَاءُ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرَ مِنْ حِسَابَاتِ الْبَشَرِ

تَأْلِيفُ: رَدَّادُ السَّلَامِيِّ

سُورَةُ الْكَوْثِرِ

حين يكون العطاء من الله أكبر من حسابات البشر

تأليف : رَدَّاد السَّلَامِيُّ

مقدمة منهجية

سورة قصيرة... ولكنها أكبر من مقاييس الحجم

ثلاث آيات فقط، ولكن القرآن لا يقيس عظمة المعنى بعدد الكلمات، ولا يزن الحقيقة بمساحة الصفحة؛ فقد تنفتح في جملة واحدة نافذة على الكون كله، وقد تُسكب في ثلاث آيات من معاني التثبيت والكرامة والعبادة والمصير ما تحتاج النفس إلى عمر طويل كي تستوعب بعض إشراقاته. وسورة الكوثر واحدة من تلك السور التي تبدو صغيرة في بنائها، لكنها إذا فُتحت أبوابها انكشف وراءها أفق واسع من المعرفة بالله، وبطبيعة العطاء، وبمنطق النبوة، وبحقيقة الخصومة، وبالفرق الهائل بين المقاييس الأرضية العابرة والمقاييس الإلهية الباقية.

إنها سورة تنزل في قلب أجواء الألم، لكنها لا تتحدث بلغة الجرح؛ وتنزل في سياق الشماتة، لكنها لا تشغل بتفاصيل الشامتين؛ ويحيط بالنبي صلى الله عليه وسلم من يظنون أن فقد الأبناء الذكور يعني انقطاع الذكر والامتداد، فإذا الوحي لا يدخل معهم في ميزانهم الضيق، بل يهدم الميزان كله من أساسه: إنهم يرون النقص، والله يخبر عن الكوثر؛ وهم يتوهمون الانقطاع، والله يحكم بأن المنقطع في الحقيقة هو المبغض الشائن.

وهنا تظهر إحدى طرائق القرآن العجيبة في تحرير الإنسان من أسر الظاهر: قد تنظر العين إلى شيء قتره فقداً، ثم يكشف الله أن وراءه عطاء؛ وقد يظن الناس أن القوة في كثرة الأنصار والأبناء والأموال، بينما تكون القوة الحقيقية في صلة لا يراها الناس بين عبد وربّه؛ وقد يظن خصمٌ أنه استطاع أن يجرّك بكلمة، فإذا كانت تلك الكلمة نفسها سبباً في نزول وحيٍّ يُتلى إلى قيام الساعة.

ليست سورة الكوثر إذن مجرد وعد بنهر في الجنة، وإن كان الكوثر ثابتاً في السنة بأنه نهر أعطاه الله نبيه صلى الله عليه وسلم، وإنما اللفظ القرآني بما يحمله من سعة يفتح كذلك باب معنى الخير الكثير الذي أفاضه الله على رسوله: النبوة، والقرآن، والحكمة، ورفعته الذكر، وكثرة الأمة، والشفاعة، والحوض، والنصر، وبقاء الرسالة، وما ادخره الله له في الآخرة. فالكوثر ليس شيئاً واحداً منعزلاً عن سائر العطاء، بل عنوان كثرة لا تنضب، وإشارة إلى أن ما عند الله أكبر دائماً من الصورة التي يراها الإنسان في لحظة الألم.

ومن هنا سيكون هذا الكتيب قائماً على ثلاث دوائر متداخلة: نبدأ من ظاهر الآية ولغتها وسياقها، ثم ننظر في بناءها النفسي والفكري، ثم نفتح المعنى على حياة الإنسان من غير أن نخرج بالآية عن دلالتها، أو نخلعها ما لا تحتمل. إن التدبر ليس أن نستبدل بالتفسير خيالاً، وإنما أن نقف على أرض المعنى الصحيح، ثم نترك القلب والعقل يتأملان امتداداته.

وسورة الكوثر، على قصرها، تبني ثلاث حقائق كبرى: أن العطاء الحقيقي مصدره الله، وأن شكر العطاء يتحول إلى عبادة، وأن الحكم على البقاء والفناء ليس للناس بل لله.

الفصل الأول

﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾

حين يواجه الله ألم العبد بلغة العطاء

تبدأ السورة بـ﴿إِنَّا﴾، وبداية الجملة وحدها كافية لتغيير ميزان الشعور كله؛ لأن المتكلم هو الله سبحانه، فإذا كان المعطي هو الله لم يعد السؤال فقط: ما الذي أُعطي؟ بل يصبح السؤال الأكبر: ما قيمة عطية كان الله هو واهبها؟ إن الأشياء لا تُقاس بذواتها وحدها، وإنما بمصدرها كذلك؛ وقد تكون الهدية صغيرة في ظاهرها لكن جلال من وهبها يملؤها معنى، فكيف إذا كان المعطي رب العالمين، وإذا كان العطاء نفسه موصوفاً بالكثرة والفيض؟

ثم تأتي ﴿أَعْطَيْنَاكَ﴾ بالفعل الماضي، وكأن العطاء قد تقرر وانتهى أمره، فلا موضع للشك ولا مساحة لاحتمال. ليس وعداً معلقاً على مستقبل مجهول، بل خطاب تقرير وثبت: لقد أعطيناك. وفي هذا التعبير من الطمأنينة ما يجعل القلب يقف فوق ألمه بدل أن يغرق فيه؛ لأن الإنسان حين يكون في لحظة فقد يرى ما أخذ منه أكثر مما يرى ما أُعطي، وتأتي التربية القرآنية لتردّ البصر إلى الجانب الآخر من الحقيقة.

فالابتلاء بطبيعته شديد الحضور في الوعي؛ الألم يقرع أبواب الحس بقوة، بينما النعم الكبرى قد تصبح من فرط الاعتياد عليها صامتة في الشعور. يفقد الإنسان شيئاً واحداً فينسى عشرات الأشياء التي لا تزال في يده، ويُغلق باباً في وجهه فيظن أن العالم كله قد أغلق، ويصله أذى من شخص فيتوهم أن صورته عند الجميع قد انهارت. سورة الكوثر تعيد هندسة الانتباه: لا تجعل ما فقدته أكبر في بصرك مما أعطاك الله.

وليس المقصود أن يهون الإنسان من ألمه، فالقرآن لا ينكر طبيعة النفس، وإنما يمنع الألم من أن يتحول إلى تفسير شامل للحياة. فقد يحزن الإنسان، لكن الحزن ليس دليلاً على أن الله حرمه الخير، وقد يفقد، لكن الفقد ليس برهاناً على أنه صار فقيراً عند الله؛ وقد يمر بمنعطف يبدو مظلماً، بينما تكون وراءه عطايا لا تدركها عين اللحظة.

وما أبلغ أن تأتي هذه السورة في سياق من حاولوا أن يقيسوا قيمة النبي صلى الله عليه وسلم بمقياس النسب البشري واستمرار الذرية الذكورية، فكأن الوحي يقول لهم: أنتم تنظرون إلى جدول صغير، والله أعطاه بحراً؛ أنتم تعدّون امتداد الاسم في ولدٍ أو رجل، والله يجعل ذكره ممتداً على ألسنة الملايين عبر القرون؛ أنتم تحسبون البقاء بالجسد، والله يخلق له بقاء الرسالة.

وهنا تنكشف ضآلة كثير من المقاييس التي نتخاضم بها في الحياة. ما أكثر ما يظن الناس أن بقاء الإنسان في منصب، أو اسم، أو مال، أو ابن، أو مؤسسة، بينما البقاء الحقيقي أعقد وأعمق من ذلك؛ قد يعيش إنسان عقوداً طويلة ثم لا يبقى منه أثر، وقد يرحل آخر وتظل كلمة واحدة قالها تعمل في الأرواح قروناً. ليست الأعمار وحدها هي التي تحدد مقدار البقاء، بل ما يضعه الله في العمر من البركة.

الكوثر: الخير الذي تجاوز العدّ

الكوثر في أصل اللفظ يدل على الكثرة البالغة، وهو اسم للنهر الذي أعطاه الله نبيه صلى الله عليه وسلم في الجنة، وثبت وصفه في السنة، غير أن التعبير القرآني يحمل من سعة اللفظ ما يجعل النهر أعظم تجليات العطاء، ولا يمنع أن يفهم معه الخير الكثير الذي أكرم الله به نبيه.

لقد أعطي القرآن، وهل بعد كلام الله عطاء؟ وأُعطي النبوة، وهل بعد الاصطفاء مقام؟ وأُعطي رفعة الذكر حتى لا يكاد يذكر اسم الله في شعائر الإسلام الكبرى إلا

ذُكر معه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويصلي عليه المؤمنون في مشارق الأرض ومغاربها، وتُقرأ سيرته، وتُروى سنته، ويُتدبى به، ويُدافع عنه، ويُحِبُّ بعد مرور القرون كأنه بين أهله وأصحابه.

أي انقطاع هذا الذي توهمه خصومه؟

لقد ذهب الشامتون، وبقي المشموت به في زعمهم حاضراً في الأذان والصلاة والقرآن والسنة والقلوب والضمائر.

وهذه إحدى مفارقات التاريخ التي لا تفهم إلا في ضوء الوحي: قد يكون الإنسان محاصراً في لحظة، ثم تكون تلك اللحظة نفسها بداية الاتساع؛ وقد يبدو أن خصومه يملكون المنابر والأصوات، بينما يكون اسمه هو الذي سيبقى بعد أن تصير أسماؤهم هوامش في حكاية وجوده.

عطايا الله ليست دائماً مرئية

من أعمق ما تعلمنا إياه الآية أن العطاء ليس محصوراً فيما تستطيع اليد أن تمسكه. نحن أبناء عالم مادي يعلمنا أن العطاء هو ما يمكن عده: المال، البيوت، الوظائف، الأبناء، الأرقام، المتابعون، النفوذ. لكن القرآن يوسع مفهوم الرزق: قد يكون أثنى ما أعطاك الله بصيرة لم يعطها صاحب الملايين، أو قلباً يعرفه، أو يقيناً يحميك من الانكسار، أو فكراً نافعاً، أو كلمة تبقى بعدك، أو سترًا حال بينك وبين طريق لو سلكته هلكت.

وكم من إنسان حسب أن الله منعه، ثم اكتشف بعد زمن أن المنع كان حماية؛ وكم من باب أغلقه الله لأن وراءه سقوطاً لم يره الإنسان؛ وكم من أمنية تأخرت لأن توقيتها الأول كان سيفسدها أو يفسد صاحبها.

العطاء الإلهي أوسع من قدرة الإنسان على قراءته في لحظته.

وهذا لا يعني أن كل ألم نستطيع تفسير حكمته تفصيلاً، فنحن لا نخطط بعلم الله، وإنما يعني أن المؤمن لا يجعل جهله بحكمة ما يمر به دليلاً على انعدامها.

حين يصبح الامتنان قوة معرفية

الامتنان في التصور القرآني ليس تجميلاً نفسياً للواقع، بل هو طريقة في رؤيته رؤية أكل. الشاكر ليس إنساناً يختلق النعم، وإنما إنسان لا يسمح للمصيبة الواحدة أن تحجب عنه بقية المشهد.

ولهذا كانت الآية الأولى وحدها مدرسة في مقاومة تضخم الألم: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾.

كأنها تقول: قبل أن تحصي ما سلب منك، أعد النظر في الذي أعطيتك.
وقبل أن تسمح لصوت الشامتين أن يعرفك بنفسك، اسمع تعريف ربك لك.
وقبل أن تحكم على مصيرك من مشهد واحد، انتظر اكتمال الصورة.

الفصل الثاني

﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحِرْ﴾

حين يتحول العطاء إلى عبادة

لا تتقف السورة عند الإخبار بالعطاء، فالقرآن لا يصنع إنساناً مستهلكاً للنعم، بل يصنع عبداً يعرف من أين جاءت النعمة، ويعرف كيف ينبغي أن تستقبل. لذلك جاءت الفاء مباشرة: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحِرْ﴾.

إنها حركة بالغة الدلالة: عطاء من الأعلى، وعبادة تصعد من العبد؛ فضل ينزل، وشكر يرتفع.

ولا يفهم الشكر هنا بوصفه كلمة تقال باللسان فقط، بل بوصفه اتجاهًا كاملاً للحياة. ما دام الله هو الذي أعطى، فله وحده تُصرف العبادة. ومن هنا يلتقي التوحيد بالامتنان: أعظم ما يفسد النعمة أن ينسبها الإنسان إلى نفسه، أو يجعلها وسيلة للتعلق بغير الله، أو تتحول في يده إلى سبب للغرور.

﴿لِرَبِّكَ﴾ كلمتان تهدمان كل رياء.

صَلِّ لَا تُتْرَى.

وتعبد لَا تُتَمَدَح.

واشكر لَا تُذَكَّر بين الناس شاكراً.

وانحر لربك، لا لمباهة اجتماعية ولا لسمعة ولا لطلب منزلة في قلوب البشر.

إن العبادة هنا تعيد النعمة إلى مصدرها اعترافاً وخضوعاً.

الصلاة: إعادة ترتيب القلب

لماذا الصلاة بعد العطاء؟

لأن النعمة نفسها قد تكون ابتلاءً إذا لم تُربط بالله. قد يعطي الله الإنسان مالاً فيأخذه المال بعيداً عنه، ويمنحه شهرة فتلتهم الشهرة قلبه، ويهبه علماً فيتحول العلم إلى استعلاء، ويمنحه نجاحاً فيتوهم أنه استغنى.

لذلك تأتي الصلاة كأنها حماية للعطية من أن تتحول إلى حجاب.

في الصلاة يقف الإنسان بين يدي الله وقد ترك وراءه ألقابه وأرقامه وإنجازاته؛ لا يدخل الصلاة وزيراً ولا غنياً ولا مشهوراً ولا مؤلفاً ولا عالماً، وإنما يدخل عبداً. يسجد جبهته على الأرض ليعلن بحجسه أن كل ارتفاع دنيوي ينبغي أن ينتهي إلى هذا الانخفاض لله.

وهنا المفارقة الجميلة: كلما كثرت عطاياك احتجت إلى السجود أكثر، لا لأنك مذنب بالضرورة، بل لأن النعمة نفسها تحتاج إلى حراسة من الكبر.

«لربك»: تحرير العمل من أعين الناس

في كلمة ﴿لِرَبِّكَ﴾ علاجٌ لأحد أشد أمراض النفس خفاءً: أن يعيش الإنسان تحت سلطة نظرات الآخرين.

كم من عمل بدأ الله ثم تسلل الناس إلى دوافعه.

وكم من خير صار صاحبه ينتظر صدهاء في الوجوه.

وكم من كاتب صار يكتب بعين القارئ لا بعين الحقيقة.

وكم من متكلم عدل موقفه كي يحافظ على صورته.

إن التوحيد ليس فكرة كلامية معزولة عن السلوك، بل تحرير داخلي هائل من عبودية الجمهور.

حين تعرف أن ربك هو المعطي، يصبح رضا أثقل في ميزانك من تصفيق الناس،
ويصبح فقد إعجابهم محتملاً إذا حفظت علاقتك به.
وهنا تستعيد النفس سيادتها.

فالإنسان الذي ينتظر قيمته من الناس سيزل رهين مزاجهم: يرفعونه فيرتفع، ويهملونه فينطفئ، ويمدحونه فينتشي، وينتقدونه فينهار. أما حين تكون الجهة التي يتلقى منها المعنى هي الله، فإنه لا يصبح عديم الإحساس بالناس، ولكنه يتحرر من أن يكون وجوده النفسي مرهوناً بهم.

وانحر: الشكر الذي يتجاوز الكلمات

ثم يأتي النحر، وهو عبادة مالية وبدنية واجتماعية؛ ففيه بذل مما أعطى الله، وفيه إطعام، وفيه إظهار للتوحيد بإفراد الله بالقصد.

والدرس أوسع: النعمة التي لا يخرج منها خير إلى الآخرين مهددة بأن تتحول إلى احتباس أناني.

إذا أعطاك الله علماً، فن شكره أن تنفع به.

وإذا أعطاك مالاً، فن شكره أن يكون للضعفاء منه نصيب.

وإذا أعطاك كلمة مسموعة، فن شكرها أن تجعلها في جانب الحق لا في خدمة غرورك.

وإذا أعطاك قدرةً على التأثير، فن شكرها أن تستعملها في البناء لا في الإفساد.

وهكذا تتحول النعمة من ملكية إلى مسؤولية.

قاعدة سورة الكوثر

يمكن اختصار منطق الآيتين الأوليين في قاعدة عميقة:

كلما ازداد العطاء، ازدادت مسؤولية العبودية.

ليس الشكر هو أن تقول إنك محظوظ، بل أن تسأل: ماذا يريد الله مني بهذا الذي أعطاني؟

وهذا السؤال يغير معنى النجاح كله.

فالموهبة ليست زينة شخصية، بل أمانة.

والعلم ليس لقباً، بل حجة.

والمال ليس تكديساً، بل اختبار.

والوقت ليس فراغاً، بل رأس مال عمر.

ومن لم يحول العطاء إلى عبادة قد يتحول العطاء نفسه إلى استدراجٍ للغفلة.

الفصل الثالث

﴿إِنَّ شَانِكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾

حين يصدر الحكم من فوق ضجيج الشامتين

بعد أن كان الخطاب في الآيتين الأولين للنبي صلى الله عليه وسلم، تنتقل السورة في ختامها إلى الشاني: ﴿إِنَّ شَانِكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾.

والشاني هو المبعض.

والمثير أن القرآن لا يذكر اسمه.

وهذه وحدها صورة من صور الحكم الإلهي على الأجام الحقيقية للأشخاص: لقد أراد الشاني أن يجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم هامشاً عابراً، فإذا القرآن يجعل الشاني نفسه بلا اسم في الآية، مجرد وصف يعرف به عبر موقفه من النبي.

إن بعض الناس يختار لنفسه في التاريخ تعريفاً سيئاً حين يجعل حياته قائمة على عداوة الحق.

كان يستطيع أن يكون صاحب رسالة أو بناء أو معروف، لكنه اختار أن يكون «شانيّاً»، فذابت هويته في كراهيته.

وهذه مأساة أخلاقية تكرر: حين يستهلك الإنسان حياته في بغض شخص أو مشروع، يصبح خصمه مركزاً عالمه من حيث لا يشعر؛ ينام عليه ويستيقظ عليه، يفسر الأشياء من خلاله، ويقيس نجاحه بإيذائه، فيخسر نفسه في الوقت الذي يتوهم فيه أنه يحارب غيره.

«هو الأبتر»: انقلاب كامل للمشهد

قالوا عن النبي صلى الله عليه وسلم: أبتر.

نجاء القرآن بصيغة الحصر والتوكيد: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾.
هو، لا أنت.

وهنا لا يكتفي القرآن بتكذيبهم، بل يقلب الاتهام إلى أصحابه.
لقد نظروا إلى اللحظة، ونظر الله إلى المصير.

وهذا فرق جوهري بين الإنسان وربّه: الإنسان يحكم من موضع محدود داخل الزمن،
أما الله سبحانه فيعلم الماضي والحاضر والمستقبل علماً كاملاً لا يحده شيء.
ولذلك كانت أحكام الناس على النهايات من أكثر أحكامهم تعرضاً للخطأ.
كم من فكرة سخفوا منها ثم ملأت الأرض.
وكم من إنسان ظنوه منتبهاً ثم صار بعد موته أكثر حضوراً.
وكم من صاحب سلطان ملأ الدنيا ضجيجاً ثم لم يبق من اسمه إلا صفحة معتمدة.
البقاء ليس ضوضاء.

والأثر ليس شهرة لحظية.
والامتداد ليس حساباً عددياً مباشراً.
إنه سر يضعه الله حيث يشاء.

البتر الحقيقي

البتر في دلالة السورة أعمق من انقطاع النسل؛ إنه انقطاع الأثر والخير والذكر
الحقيقي.

فالإنسان قد يكون له أبناء كثيرون وهو أبتر من المعنى.
وقد تكون له أموال ضخمة وهو أبتر من البركة.
وقد يكون له حضور إعلامي واسع وهو أبتر من القيمة.

وقد يضحج الناس باسمه سنوات ثم ينطفئ كأنه لم يكن.
وفي المقابل قد يكون المرء قليل الحظ من الدنيا، لكن الله يضع في كلمته أو موقفه أو
علمه أو ذريته أو عمله امتداداً بعيداً.

ولهذا فإن أشد أنواع البتر ليست أن ينقطع اسمك من السنة البشر، بل أن ينقطع
عملك عن مصدر الخير.

ما قيمة أن يتذكرك الناس إذا نسيت سجل الصالحات؟
وما قيمة أن يتكرر اسمك إذا كان تكراره بلا معنى عند الله؟

لا تقاات الشماتة بمنطقها

من أبداع ما في السورة أنها لم تأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يدخل مع خصومه في
معركة إثبات شخصية.

لم تقل له: اشرح لهم أنك لست أبت.

ولا: اجمع الأدلة على امتدادك.

ولا: أجب كل شامت.

بل قالت: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾.

وهذه تربية رفيعة في إدارة الخصومة.

حين يهاجمك أحد، قد يكون أكبر انتصار له أن يجرك إلى عالمه حتى تصبح حياتك
كلها رداً عليه. أما سورة الكوثر فتعلمك أن تواصل مهمتك: اعبد ربك، اعمل، ابذل، دع
الحكم لله.

ليس كل خصم يستحق أن يصبح مشروع حياتك.

وليس كل كلمة تحتاج جواباً.

وليس كل افتراء يستحق أن تُبدد عمرُك في ملاحظته.
أحياناً يكون العمل نفسه هو الرد، والزمن هو المفسر، والله هو الحكم.

الفصل الرابع

هندسة السورة

من العطاء إلى العبادة إلى الخلود

إذا نظرنا إلى سورة الكوثر كوحدة واحدة وجدنا بناءً مذهلاً في تماسكه:

﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾

هذه حقيقة العلاقة بالله: فضل وعطاء.

﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾

وهذه استجابة الإنسان: عبادة وشكر.

﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾

وهذا حكم المصير: البقاء للتحق والانقطاع للعداوة الباطلة.

إنها دائرة مكتملة: يبدأ الأمر من الله، ثم يرجع إلى الله بالعبادة، ثم يصدر الحكم النهائي من الله.

والإنسان في المنتصف عبدٌ يتلقى ويشكر ويواصل طريقه.

السورة التي تصحح مفهوم الكثرة

اسم السورة نفسه «الكوثر» يعلننا أن الكثرة ليست دائماً عدداً نراه.

قد يكون رجل واحد أمة في الأثر، وقد تكون جموع كثيرة غثاء بلا قيمة.

وقد تكون ثلاثة آيات عالماً من الهداية، وقد تكون مكتبات ضخمة بلا نور.

الكثرة التي يباركها الله تختلف عن الكثرة التي تعدها الإحصاءات.

لذلك فإن أخطر خطأ يقع فيه الإنسان المعاصر هو أن يساوي بين الرقم والقيمة:
الأكثر مشاهدة أفضل، والأكثر مألأ أنجح، والأكثر متابعة أعظم تأثيراً.

لكن سورة الكوثر تكسر هذا الوهم.

هناك كثرة ظاهرة تنطفئ.

وهناك كوثر يضعه الله في الشيء القليل فيفيض.

قد يكتب الإنسان صفحة واحدة صادقة فتعيش أطول من عشرات الكتب
المصنوعة للضجيج.

وقد يرثي أب ابناً واحداً على الحق فيمتد الخير عبره أجيالاً.

وقد يفعل المرء معروفاً لا يراه أحد فيفتح الله به أبواباً لا يعلمها.

البركة هي أن يعطي الله الشيء قدرةً على تجاوز حجمه.

الكوثر ضد عقلية الندرة

يعيش كثير من البشر بعقلية الندرة: يخافون أن يأخذ غيرهم مكانهم، أو أن ينجح
غيرهم فينقص نجاحهم، أو أن يمدح أحد سواهم فيشعروا أن شيئاً انتزع منهم.

أما من عرف «الكوثر» فإنه يعرف أن خزائن الله لا تنفد.

لا يحتاج أن يحسد أحداً.

ولا أن يزاحم الناس على كل مساحة.

ولا أن يبني قيمته على إسقاط غيره.

فالذي أعطى غيرك قادر أن يعطيك، والذي فتح له باباً يملك أبواباً لا تخطر لك.

وهذه المعرفة بالله تحرر القلب من كثير من الأمراض الاجتماعية التي أصلها الخوف

من الندرة.

القرآن يعيد تعريف المنتصر

في مقاييس اللحظة كان هناك قوم يملكون لسان السخرية، ويستطيعون إطلاق
الكلمات الجارحة، بينما النبي صلى الله عليه وسلم يمر بألم الفقد.

لكن بعد قرون، من الذي بقي؟

ومن الذي صار العالم يكرر اسمه في الأذان؟

ومن الذي صار ملايين البشر يصلون عليه كل يوم؟

ومن الذي صار الشائون يُذكرون - إن ذُكروا - لأنهم وقفوا ضده؟

هذه ليست مجرد قصة تاريخية، بل قاعدة في فهم الحياة: لا تستعجل تعريف المنتصر

من منتصف المعركة.

الفصل الخامس

سورة الكوثر والإنسان المعاصر

كيف تحمي روحك من مقاييس السوق والجمهور؟

الإنسان الحديث يعيش في عالم يقيسه باستمرار: عدد المتابعين، مقدار الدخل، سرعة الإنجاز، حجم الانتشار، مرات الظهور، تقييم الناس، ترتيب المنصب. ومن شدة حضور الأرقام قد ينسى الإنسان أن أعظم ما فيه غير قابل للقياس.

كيف تقيس الصدق؟

كيف تقيس صفاء النية؟

كيف تقيس بركة كلمة أنقذت إنساناً من اليأس؟

كيف تقيس دعاءً خفياً فتح الله به باباً؟

كيف تقيس أثر كتاب سيقروه إنسان بعد خمسين عاماً؟

ليس كل ما له قيمة يدخل في جدول إحصائي.

وسورة الكوثر تعيد الإنسان إلى هذه الحقيقة: القيمة الكبرى لا تُمنح من الجمهور.

الله هو الذي يعطي.

والله هو الذي يبارك.

والله هو الذي يحفظ الأثر.

والله هو الذي يحكم في النهاية من الأبر ومن صاحب الامتداد.

وهذا لا يعني احتقار التخطيط أو الأسباب أو النجاح الظاهر، وإنما يعني وضعها في

رتبتها الصحيحة: أدوات لا آلهة، وسائل لا مصادر للمعنى.

لا تسمح لأحد أن يختصر حياتك في خسارة واحدة

قد يُعرف الإنسان في أعين الآخرين بفشله في تجربة، أو فقدته لمنصب، أو انهيار مشروع، أو خسارة مال. الناس يحبون الاختصار لأن النظر إلى الإنسان في تعقيده الكامل يحتاج عدلاً وصبراً.

لكن الله لا يختصرك في عثرتك.

وسورة الكوثر تقول لكل نفس ضاقت بصورة يفرضها الآخرون عليها: ليس الشامت هو الذي يملك تعريف حقيقتك.

قد يراك ناقصاً في جانب، والله أعطاك في جانب آخر كوثراً.

وقد يسخر الناس مما تملك، ثم يكتشف الزمن أن أعظم ما فيك كان شيئاً لم يروه.

اصنع علاقتك بالله قبل أن تصنع صورتك

﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾.

هذه الكلمة وحدها مشروع تحرر.

لا تجعل حياتك معرضاً دائماً.

ليس مطلوباً أن يفهم الجميع دوافعك.

ولا أن يعرفوا كل خير فعلته.

ولا أن يقتنعوا بك.

هناك مساحة بينك وبين الله هي أثن من صورتك العامة كلها.

وكلها نمت هذه المساحة صار الإنسان أقل هشاشة أمام تقلبات المدح والذم.

الفصل السادس

الكوثر: الوفرة في القرآن

حين يحور الوحي الإنسان من خوف النقص

من أعمق التحولات التي تصنعها سورة الكوثر في وعي الإنسان أنها لا تكتفي بأن تخبره عن عطية بعينها، بل تعيد تشكيل نظرتة إلى معنى العطاء نفسه؛ فالإنسان كثيراً ما يعيش أسير ما يمكن أن نسميه وعي النقص: ينظر إلى ما فاته أكثر مما ينظر إلى ما مُنح، وقيس حظه بما في أيدي الآخرين، ويحسب أن الخير مقدار محدود إذا وصل إلى غيره نقص نصيبه منه، ويخشى أن يسبقه أحد إلى المكانة أو الرزق أو التأثير، وكأن خزائن الوجود موصدة إلا على حصص ضيقة يتقاتل الناس عليها. ثم تأتي كلمة واحدة من القرآن لتكسر هذا التصور كله: الكوثر.

الكوثر ليس مجرد كثرة حسابية؛ فالعرب تعرف الكثير، لكن التعبير القرآني هنا يستدعي معنى الخير الغزير المتدفق الذي يتجاوز الضيق والانحصار، وكأن السورة تفتح أمام القلب أفقاً آخر للوجود: أنت لا تتعامل مع مصدر محدود، وإنما مع رب قال سبحانه: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾، ورب وصف نفسه بأنه ذو الفضل العظيم، ورب لا تفقد خزائنه ولا يعجزه أن يفتح لعبد باباً لم يخطر له على بال.

ومن هنا فإن أخطر أنواع الفقر قد لا يكون فقر المال، بل فقر التصور عن الله؛ أن يتخيل الإنسان أن أبواب الخير محدودة، وأن الفرص إذا ذهبت مرة لم تعد، وأن نجاح الآخرين تهديد له، وأن تأخر بعض مطالبه علامة على أن نصيبه في الحياة قد ضاق. حين يستقر هذا التصور في النفس تبدأ أمراض كثيرة: الحسد، والهلع، والتعلق، والتنافس المريض، والغيرة من نجاح الآخرين، والشعور الدائم بأن العالم لا يتسع للجميع.

أما القرآن فيعلم المؤمن أن الله لا يعطي على طريقة البشر.
البشر إذا أعطوا نقص ما في أيديهم، أما خزائن الله فلا ينقصها العطاء.
والبشر قد يمنحونك لأنك قريب منهم، أو لأن لك منزلة عندهم، أو لأن وراء
عطائهم مصلحة، أما عطاء الله فيبناه على حكمة ورحمة وفضل لا يحيط الإنسان بأبعاده.
والبشر إذا أغلقوا باباً قد لا يملكون غيره، أما الله فإذا أغلق باباً فخزائنه مليئة بأبواب
أخرى.
ولهذا فإن الإيمان بـ«الكوثر» ليس ترفاً وجدانياً، بل تحرير عميق للعقل من وهم أن
الحياة غرفة ضيقة يتقاتل الناس فيها على المقاعد.

الوفرة لا تعني أن ينال الإنسان كل ما يريد

لكن من المهم أن نفرق بين «فلسفة الوفرة» في التصور القرآني وبين التفكير الساذج
الذي يتخيل أن الإيمان بالله يعني أن يحصل الإنسان على كل ما يشتهي. القرآن لا يعد
المؤمن بأن تكون الحياة استجابة مستمرة لرغباته؛ بل قد يمنع الله عبداً من شيء يحبه،
ويؤخر عنه مطلباً طال انتظاره، وينقله عبر مساحات من الفقر والابتلاء.
فالوفرة القرآنية ليست وفرة الشهوات، بل وفرة فضل الله.
وبين المعنيين فرق هائل.

قد تريد شيئاً بعينه، والله يعطيك ما هو خير منه.
وقد تطلب باباً، ويعلم الله أن الخير في إغلاقه.
وقد تتمنى طريقاً، بينما تكون نجاتك في أن يُصرف قلبك عنه.

ولهذا فإن المؤمن لا يقول: بما أن الله كريم فلا بد أن يعطيني ما أطلب بالطريقة التي أريدها، بل يقول: بما أن الله كريم فإنني أثق أن تديره أوسع من رغبتى، وأن منعه لا يعني خلويده من العطاء، وأن تأخيريه لا يعني نسياني.

وهنا تصبح سورة الكوثر مدرسة في الثقة: لم تقل للنبي صلى الله عليه وسلم إن كل صور الألم قد زالت، بل قالت له وهو داخل عالم بشري فيه أذى وفقد وخصومة: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾.

أي إن وجود الألم لا ينفي وجود الفيض.

وقد يجتمع الابتلاء والعطاء في اللحظة نفسها.

وهذه من أعقد حقائق الحياة وأجملها: قد تكون تبكي شيئاً فقد منك، وفي الوقت نفسه تكون محملاً بنعم ضخمة لا تراها لأن ألم اللحظة أعلى صوتاً.

حين يصبح القليل كوثرًا

في القرآن ليست العبرة دائماً بكثرة المادة، بل بكثرة البركة.

قد يكون الشيء قليلاً في العدد، لكنه كثيراً في الأثر.

وهذه الفكرة من جوهر معنى الكوثر.

كم من عمر طويل مر بلا بناء، وعمر أقصر امتلأ أثراً.

وكم من مال كثير لم يصنع سكينه، ومال قليل كان فيه ستر وكرامة ورضا.

وكم من كلام كثير لم يترك شيئاً، وجملته واحدة بقيت في الوجدان عقوداً.

وكم من كتاب ضخّم مات يوم نشر، وصفحات قليلة ظلت تعيد تشكيل وعي أجيال.

فالبركة هي السر الذي يجعل الشيء يتجاوز حجمه.

وهي ليست معادلة مادية نستطيع ضبطها بأرقام، وإنما فضل من الله يضعه في الوقت والعلم والرزق والعمل والأثر.

رب ساعة بارك الله فيها فغيرت مسار حياة.

ورب صداقة قصيرة صنعت في القلب ما لم تصنعه سنوات.

ورب موقف واحد حفظ لصاحبه ذكرًا حسنًا طويلاً.

ورب كلمة صادقة خرجت من قلب مخلص فدخلت أماكن لم يعرف صاحبها أنها بلغتها.

وهنا تعلمنا سورة الكوثر أن نسأل سؤالاً آخر غير سؤال الكثرة: ليس كم عندي؟ بل كم من البركة فيما عندي؟

فالعدد من غير بركة قد يتحول إلى عبء، بينما القليل المبارك قد يصير كوثرًا.

الوفرة تبدأ من معرفة المنعم لا من امتلاك النعمة

المفارقة أن الإنسان قد يملك الكثير ويعيش فقير الشعور، وقد يملك القليل ويعيش واسع القلب. والفرق في كثير من الأحيان ليس فيما حوله، بل في الطريقة التي يرى بها ما حوله.

من نسي المنعم ظل خائفًا على النعمة.

أما من عرف المنعم فإنه يستعمل النعمة ويشكره عليها، لكنه لا يجعل قلبه مربوطًا بها ربطًا مطلقًا؛ لأنه يعرف أن الذي أعطاها قادر على أن يعوض، وأن أصل الأمان ليس في الموجود بل في الصلة بمن أوجده.

ولهذا جاءت سورة الكوثر مرتبة بعقريّة:

أولاً: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾.

ثم: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾.

فالسورة لا تريد أن يتوقف الإنسان عند العطية، بل تريد أن تعبر به من العطية إلى المعطي.

وهذا هو الفرق بين التدين الذي يصنع عبداً لله والتدين الذي يصنع عبداً للنعم. الأول يحب الله في السراء والضراء، والثاني قد لا يرى في الله إلا وسيلة لتحقيق رغباته.

الأول يقول: أعطاني فحمدت، ومنعني فوثقت، وابتلاني فصبرت. أما الآخر فيبني علاقته بالله على معادلة خفية: أعطني كي أَرْضَى. وسورة الكوثر تهدم هذه المعادلة؛ لأن أعظم عطايا الله ليست دائماً في الشكل الذي يطلبه الإنسان.

الوفرة والتحرر من الحسد

لو استقرت حقيقة أن الله ذو الفضل الواسع في القلب لانكسر جزء كبير من الحسد.

فالحاسد يتعامل مع نجاح الآخر كأنه إعلان لخسارته الشخصية. يرى رزق غيره فيشعر أن خزينة الوجود قد نقصت. يرى موهبة عند إنسان فيتألم كأن موهبة الآخر أخذت من نصيبه. ويرى انتشاراً أو علماً أو جاهاً أو محبة فيبدأ بالمقارنة. لكن المؤمن الذي يفهم معنى الكوثر يقول لنفسه: ما أعطاه الله لغيري ليس دليلاً على حرمانني؛ فالذي فتح له قادر أن يفتح لي باباً آخر، وربما كان بابي مختلفاً تماماً عن بابه.

وهنا يتحول قلبه من الحسد إلى الدعاء.

ومن المقارنة إلى العمل.

ومن مراقبة نصيب الآخرين إلى اكتشاف الأمانة التي وضعها الله بين يديه.

إن كل إنسان يمكن أن يكون له «كوثره» الخاص من الخير، لا بمعنى مساواة عطايا البشر بعطية النبي صلى الله عليه وسلم التي خصه الله بها، وإنما بمعنى أن فضل الله على عباده يتنوع، وأن لكل إنسان أبواباً من النعم قد لا تتشابه مع أبواب غيره.

فهذا أُعطي علماً.

وذاك أُعطي صبراً.

وهذا أُعطي ذرية صالحة.

وذاك أُعطي قلباً رحيماً.

وهذا أُعطي قدرة على التعبير.

وذاك أُعطي خفاءً يحميه من فتنة الشهرة.

وقد يظل الإنسان يحدق في نعمة غيره حتى يعمى عن نعمته.

الكوثر ومأساة المقارنة

المقارنة من أكثر الأشياء التي تصنع الوهم في النفس؛ لأنها تجعل الإنسان يقارن «داخله» بـ«ظاهر الآخرين». يعرف كل نقص عنده، لكنه لا يرى من حياة غيره إلا الجزء المعروض. فيبدأ يتخيل أن الجميع حصلوا على شيء حُرْم منه.

ثم يدخل الحزن من هذا الباب.

وسورة الكوثر تقدم علاجاً غير مباشر لهذا الداء: انظر إلى عطية الله لك قبل أن تنظر

إلى ما في يد غيرك.

ليس معنى ذلك أن كل إنسان يمتلك الظروف نفسها، ولا أن تفاوت الناس غير موجود، بل القرآن نفسه يقرر التفاوت؛ وإنما المعنى أن قيمة الإنسان لا تختصر في مقارنة أقداره بأقدار غيره.

قد يكون ما عند غيرك أصلح له، وما عندك أصلح لك.
وقد يكون الشيء الذي تحسده عليه اختباراً شديداً له.
وقد يكون الشيء الذي لا يراه فيك أحد هو أعظم ما أنعم الله به عليك.
إن العالم يراك من الخارج، أما الله فيعلم ما وُضع فيك من أسرار ونعم وتكاليف.

حين تتحول الوفرة إلى مسؤولية

لكن القرآن لا يسمح لمفهوم الوفرة أن يتحول إلى تخدير نفسي؛ فبعد الكوثر تأتي الصلاة والنحر.

وهذا يعني أن كل عطاء يفتح باب تكليف.
إذا أعطاك الله أكثر، فالسؤال ليس: كيف أستمع أكثر؟ فقط، بل: كيف أؤدي حق هذا العطاء؟

إذا أعطاك فكراً، فأين أثره في مقاومة الباطل؟
إذا أعطاك علماً، فأين تواضعك ونفعك للناس؟
إذا أعطاك مالاً، فأين نصيب المحتاجين؟
إذا أعطاك حضوراً، فإذا تجمل إلى الناس؟
إذا أعطاك قلباً، فهل تكتب ما يرفع الوعي أم ما يراكم الضجيح؟
من هنا تصبح «الوفرة» مسؤولية أخلاقية.
والإنسان ليس مالاً مطلقاً لما عنده، بل مستخلف فيما أعطاه الله.

قد يكون أكثر الناس ابتلاءً هو أكثرهم عطاءً؛ لأن كل نعمة تحمل سؤالاً يوم القيامة: ماذا صنعت بها؟

منطق السوق ومنطق الكوثر

العالم المعاصر يقوم في جزء كبير منه على منطق السوق: قيمة الشيء بما يطلبه الناس، وقيمة الإنسان بما يستطيع بيعه، وقيمة الفكرة بمقدار انتشارها، وقيمة الصوت بعدد الذين يصغون إليه.

أما القرآن فيقدم منطقاً مختلفاً.

قد يكون الشيء عظيماً عند الله وإن لم يتابعه أحد.

وقد يكون العمل مقبولاً وإن لم يُصنف له جمهور.

وقد تكون كلمة الحق قليلة الانتشار لكنها أثقل من ضجيج كامل من الباطل.

ومن هنا فإن المؤمن يحتاج باستمرار إلى أن يسأل نفسه: هل أعيش بمنطق السوق أم بمنطق الكوثر؟

منطق السوق يقول: ازدد ظهوراً.

ومنطق الكوثر يقول: ازدد صدقاً.

منطق السوق يقول: اجمع أكثر.

ومنطق الكوثر يقول: بارك ما عندك بالشكر والبذل.

منطق السوق يقول: نافس الجميع.

ومنطق الكوثر يقول: اعرف رسالتك.

منطق السوق يقول: أخطر شيء أن ينسأك الناس.

ومنطق الكوثر يقول: الأخطر أن ينقطع عملك عن الله.

وحين نقرأ أول السورة وآخرها تظهر مقابلة مذهلة:

الكوثر في البداية.

والأبتر في النهاية.

الفيض في جهة.

والانقطاع في الجهة الأخرى.

كأن السورة ترسم طريقين للوجود: طريقاً متصلاً بالله فيفيض أثره ولو بدا صغيراً،
وطريقاً قائماً على الشنآن والكبر والعداوة فينقطع ولو بدا صاحباً.

وهذه المقابلة من أعظم الأسرار الفكرية في السورة.

فالكوثر ليس مجرد عطية، والأبتر ليس مجرد شتيمة مقلوبة؛ بل بينهما تصور كامل
لمعنى الحياة.

كل ما اتصل بالله يمكن أن يباركه الله ويمنحه الامتداد.

وكل ما تأسس على العداوة للحق، مهما طال زمنه، يحمل في داخله بذور الانقطاع.

كم من إمبراطوريات بدت أبدية ثم صارت آثاراً.

وكم من أفكار أعلنت نهاية الدين ثم انتهى أصحابها وبقي الدين.

وكم من أصوات حاولت إطفاء الحق، فماتت الأصوات وبقي ما كانت تحاول

إسكاته.

إن «الأبتر» قد يبدو طويل الظل، لكنه مقطوع الجذور.

أما «الكوثر» فقد يبدأ من نقطة صغيرة ثم يجري.

ليس كل امتداد نجاحاً

ومع ذلك ينبغي ألا نقع في تبسيط آخر: ليس معنى الامتداد الزمني وحده أنه دليل رضا الله. فقد يبقى الباطل زمناً، وقد تنتشر أفكار فاسدة، وقد يكثر أتباعها. ولذلك فالكوثر ليس مجرد البقاء في التاريخ، بل الخير الكثير الذي مصدره الله ويقود إلى الله. القيمة ليست في أن تبقى فقط.

بل في ما الذي يبقى منك؟

هل يبقى علم نافع؟

هل تبقى صدقة؟

هل يبقى ولد صالح؟

هل تبقى كلمة حق؟

هل يبقى أثر يفتح في قلب إنسان باباً إلى الله؟

قد يبقى اسمك، لكن لا يبقى لك عند الله شيء.

وقد يختفي اسمك من ذاكرة الناس ويظل عملك مرفوعاً في ميزان لا يراه البشر.

وهنا يصل مفهوم الكوثر إلى ذروته: ليس المطلوب أن تصنع خلودك بنفسك، بل أن تصنع ما يستحق أن يباركه الله.

الوفرة الحقيقية هي وفرة المعنى

قد يكون أعظم ما تعانيه الحضارة الحديثة ليس قلة الأشياء، بل كثرتها مع قلة المعنى.

لدينا معلومات أكثر، لكن الحكمة ليست بالضرورة أكثر.

لدينا وسائل اتصال أكثر، لكن القرب الإنساني ليس بالضرورة أعمق.

لدينا خيارات أكثر، لكن الطمأنينة ليست أكثر.

لدينا قدرة أكبر على الظهور، لكن معرفة الإنسان بنفسه ليست أوضح.

إنها كثرة بلا كوثر.

فالكوثر ليس تراكمًا.

الكوثر فيض بركة.

ولهذا قد يكون الإنسان محاطًا بكل شيء وهو يشعر بالفراغ، لأن الروح لا تشبع بالأشياء وحدها.

إنها تحتاج معنى.

تحتاج وجهة.

تحتاج أن تعرف لماذا تعيش، ولمن تتجه، وما الذي يجعل أيامها متصلة بشيء أكبر من دورة الاستهلاك والعمل والظهور.

وهنا تأتي الصلاة وسط السورة كأنها المفتاح: إذا أردت أن تتحول الكثرة إلى كوثر، فلا بد أن تمر عبر العبودية.

فالمال من دون معنى قد يصير استعبادًا.

والشهرة من دون عبودية قد تصير سجنًا.

والعلم من دون تقوى قد يصير كبرًا.

والقوة من دون أخلاق قد تصير طغيانًا.

والعمر من دون رسالة قد يصير مجرد امتداد زمني فارغ.

كيف يعيش الإنسان بمعنى الكوثر؟

أن تعيش بمعنى الكوثر لا يعني أن تتوقع رخاءً دائماً، بل أن تعيش وفي قلبك يقين بأن فضل الله لا يختصر في ظاهر الحال.

أن تعمل من غير هلع.

أن تطلب من غير عبودية للمطلوب.

أن تنافس نفسك أكثر مما تنافس الآخرين.

أن تفرح بالخير إذا وصل إلى غيرك.

أن تنظر إلى النعمة مسؤولية قبل أن تراها امتيازاً.

أن تترك مساحة في قلبك للمفاجآت الإلهية التي لم تخطط لها.

أن تعرف أن بعض الأبواب التي أغلقت كانت جزءاً من عطاء لا تفهمه بعد.

وأن تسأل كل يوم:

ما الكوثر الذي وضعه الله في حياتي ثم اعتدته حتى لم أعد أراه؟

ربما كان قرآناً بين يديك.

وربما عقلاً يستطيع أن يفكر.

وربما قلباً ما زال يخشع.

وربما فرصة للعودة بعد خطأ.

وربما شخصاً يحبك بصدق.

وربما قدرة على الكتابة.

وربما وقتاً ما زال أمامك.

وربما دعوة ما زال بابها مفتوحاً.

وربما سترًا لا تعرف كم مرة أنقذك.

إن أكبر مشكلة في النعمة ليست فقدها دائماً، بل أن تصبح مألوفة إلى درجة أن يتوقف القلب عن رؤيتها.

الخلاصة: من النقص إلى الفيض

سورة الكوثر لا تنكر أن في الحياة فقداً، لكنها ترفض أن يكون الفقد هو اللغة الوحيدة التي نقرأ بها الوجود.

ولا تنكر أن هناك أعداءً وشامتين، لكنها ترفض أن تمنحهم سلطة تحديد قيمة الإنسان.

ولا تنكر حاجات الإنسان، لكنها تفتح وعيه على خزائن أعظم من حاجاته.
وهكذا تنتقل النفس من سؤال النقص:

ماذا ينقصني؟

إلى سؤال العطاء:

ماذا أعطاني الله؟

ثم من سؤال العطاء إلى سؤال المسؤولية:

ماذا صنعت بما أعطاني؟

ثم من سؤال المسؤولية إلى سؤال المصير:

أي أثر سيبقى بعدي؟

وهنا تكتمل فلسفة الكوثر.

ليست الوفرة أن تملك كل شيء..

بل أن تعرف أن الله هو المصدر، وأن تكتشف الخير الذي وضعه في حياتك، وأن تشكره بالعبادة والعمل، وأن تحول ما عندك إلى أثر، وأن لا تسمح لندرة العالم أن تنسيك سعة خزائن السماء.

فالإنسان الذي يعرف الله لا يعيش فقير الرجاء، حتى حين تقل الأشياء حوله.

وقد يُحاصر من الخارج، لكنه يظل واسع الداخل.

وقد يفقد، لكنه لا ينهار في معنى الفقد.

وقد يشمت به الناس، لكنه يعلم أن المحكمة لم تُعقد بعد.

وقد يملك قليلاً، لكن الله يجعل في قلبه كوثراً.

وهذا هو أحد أعظم أسرار السورة:

ليس السؤال كم أعطيت، وإنما من الذي أعطاك، وماذا صنع الله فيما أعطاك من بركة وامتداد.

الخلاصة

حين يكون الله هو المعطي... لا يستطيع الشامت أن يسلبك

تنتهي سورة الكوثر بسرعة في التلاوة، لكنها لا تنتهي سريعاً في القلب.
ثلاث آيات تنقل الإنسان من جرح الشماتة إلى سعة العطاء، ومن العطاء إلى
السجود، ومن السجود إلى الطمأنينة بأن الحكم الأخير ليس للتصوم.

﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾

فلا تجعل ما فقدت يحجب عنك ما أعطاك الله.

﴿فَصَلِّ لِرَبِّكِ وَأَنْحِرْ﴾

ولا تجعل النعمة تستوقفك عند ذاتك، بل دعها تقودك إلى المنعم.

﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾

ولا تحش أحكام اللحظة؛ فالله وحده يعلم من يمتد أثره ومن ينقطع.
وحين تستقر هذه المعاني في النفس، يتغير موقع الإنسان من الحياة. لا يعود طالباً
لكل اعتراف، ولا مرعوباً من كل فقد، ولا مستفزاً بكل خصومة، ولا مسجوناً داخل
عيون الناس. يعرف أن وراء الظاهر رباً يعطي، وأن لكل نعمة حقاً من العبادة، وأن
التاريخ ليس هو المحكمة النهائية، وأن ألسنة البشر مهما ارتفعت لا تملك قرار البقاء.
ولعل أعظم ما تهبه سورة الكوثر للقلب أن تنقله من الشعور بالحرمان إلى الشعور
بالفيض.

فليس السؤال دائماً: ماذا أخذت الحياة مني؟

بل هناك سؤال أعمق:

ماذا أعطاني الله مما لم أحسن بعد رؤيته؟

وليس السؤال: لماذا قال الناس عني كذا؟

بل:

من أكون عند الله، وماذا صنعت بعطائه؟

وليس السؤال: هل سيبقى اسمي؟

بل:

هل سيبقى من عملي شيء يحبه الله؟

هناك يصبح «الكوثر» أكثر من نهر في الجنة، من غير أن يفقد دلالة الثابتة تلك؛ يصبح اسماً يذكر النفس بسعة فضل الله، وبأن الخير عنده أكبر من أن تحصره حسابات البشر، وبأن من اتصل بالمصدر الذي لا ينفد لا ينبغي أن يعيش بعقيلة الإفلاس الروحي.

إنها سورة تقول للنبي صلى الله عليه وسلم في لحظة أراد فيها الشامتون أن يصنعوا من الفقد خاتمة:

لم تنتهِ الحكاية.

بل إن الذين أعلنوا نهايتك هم الذين سينقطعون، أما أنت فقد أعطاك ربك الكوثر.

وهكذا يبقى درس السورة ممتداً لكل مؤمن:

إذا أعطاك الله معنىً من عنده، فلا تخف من ضيق اللحظة.

إذا فتح لك باب القرب، فلا ترعبك أبواب أغلقت.

إذا جعل لك أثراً في الخير، فلا تستجد شهادة الشامتين.

واستقبل عطايا الله كما علمك القرآن:

بصلاةٍ ترد القلب إلى ربه، وببذلٍ يخرج الخير إلى الناس، وبطمأنينةٍ تعرف أن الحكم
الأخير لله وحده.

فقد يكون حولك من يظنك مقطوعاً، وأنت - في علم الله - على أول طريق الكوثر.

تم بحمد الله